المعذبون

« نظرة الى ماض قريب »

عند ناصية الشارع الكبير ·· أفرغ ما بصفيحته على الكوم ·· وما الكوم الا كوم « زبالة » وما هـــو الا « زبال » يجمع ما تتمخضه الشقق والمنازل من نفايات ومهملات ·· وبقايا أشياء ·· لقاء أجر زهيد ·

وضع الصفيحة العتيقة على الأرض ·· جعل يتأملها بينما يلتقط أنفاســـه ·· وحبات العرق تنزلق على جبينه ··· افتر ثغره عن ابتسامة شاحبة ·· كم وفية هذه الصفيحة ! ·· لقد صـــاحبته حقبة طويلة من سنين عمره الشقية ·· انها تشبه زوجته ·· فكلاهما عاشره ثلثي حياته ·· مسكينة زوجته ·· مسكينة أيضا تلك الصفيحة فقد كساها الزمن بالصـــدأ ·· الا أنها مصدر رزقه ·

أفاق من شروده .. نظر تجاه الشمس .. ما زالت ناحية المشرق .. لم يزل فى النهـــار ساعات طويلة .. مر أمامه واحد من أبناء البشر .. أخاله ينظر الى صـفيحته مزدريا .. انزعج « الزبال » .

ـ لو اعترضت صفيحتى هذا الآدمى لسحقها بقدمه ... لداس على زوجتى ووطأ خبزنا .. لا ريب انه ظالم قاس .. فكيف يدوس طعامنا .. كيف ؟!

زوجته هناك فى مســكنه الحجرة .. أو فى العـراء حين يتأخر فى دفع قيمة الايجار .. أمضت أيامها مع كل اشراقـة تودعه .. ومع أول خيوط الليل تستقبله فى شوق .. الصـغار من حولها والجوع قد فغر أفواههم . تتراءى لعيونهم « لفـة ورق » فى يد عائلهم .. تحوى طعاما هو الغداء .. وهو العشاء ..

بعين الرضا نظر الى كومه الذى يرتفع وتتسع رقعته .. تحسس جيبه الذى انتفخ وثقل بالقروش .. كان الجيب فوق قلبه .. فكلما رنت القروش انبعث صداها فى أعماقه .. أشـد روعة من احدى « سيمفونيات بتهوفن » .

رفع يده المعروقة .. بســبابته مسح عرق جبينه ... سقطت قطرة فى فمه فأحس بملوحتها ومرارتها فى حلقه ... جلس بجانب الصفيحة والكوم .. بالضـبط كما يجلس بين أسرته .. جاب الشـارع بعينيه .. ما زال هناك الكثير من المنازل لم يخلصها من نفاياها .. انفرجت بعض أساريره .. فى حذر وضع راحته على جيبه كأنما يضعها على فرخ خرج توا من فقسه .. تلفت حوله فى حيطة .. أخرج ما بجيبه بينما يتلفت .. فشل أن يبتلع لعابه .. جعل يعد القروش ويبتسم لرنينها

.. لم يكمل عدها حتى لا تفقد بركتها .. هكذا حدثته نفسه .. أعادها الى جيبه .. فجأة .. انكمشت أساريره .. سرح بفكره قليلا .. لو مال أو انحنى لانزلق بعض القروش .. وتكون طامته .. أخرج قروشه فى حذر شديد .. فكر قليلا .. نزع رقعة من على كتفه فبرزت عظمة حادة .. وضـــع القروش فى الرقعة .. لفها جيدا .. توقف برهة .. لو .. لو يطير الى زوجته فيطلعها على رزق هذا اليوم .. كم ستكون فرحتها ! .. طـرد هذه الفكرة من رأسه رفقا بزوجته من الذهول .

ـ بارك الله فى سكان هذا الشارع الكرام .

نقل بصره بين اليسار واليمين .. شخص الى أعلى ... دار من حوله بعينيه .. ليس هناك من يرقبه .. أو حتى يشعر بوجوده .. انحنى فوق كوم صغير بجانب الكبير .. دس كنزه .. أخفاه .. حينئذ تنفس الصعداء .. أخذ صفيحته والفرحـة متألقة فى عينيه .. **مشى حثيثا يحدث نفسه :**

ـ ســـأودع الفرحة فى قلب زوجتى .. وأجلب لأولادى طعاما كثيرا .. حتما ستمتلىء معداتهم .. وسأشترى لهم حلوى .. نعم حلوى .. يأكلها أولادى وتتذوقها زوجتى .. وأقرأ السعادة على وجوههم ..

ـ ان لم يكن اليوم عيد .. فأى يوم يكون ؟ .. أتى العيد الماضى على كل الناس .. طرق كل البيوت ونسى بيتنا .. تخطاه فى غفلة .. امتلأت قلوب الأولاد سعادة الا أولادى .. يومهـا أوصدت الباب حتى لا يعلم الصغار ما تصنعه بنا الأيام .

من أحد المنازل خرج وقد تلاشت بعض غضون وجهه .. لو نظر الى مرآة لكانت دهشته حين يلمح سعادته .. فتح راحة

يده ·· اختلس اليها نظرة ·· اتسعت ابتسامته فأضاءت وجهه ·· عشرة قروش !! ·

ـ منذ متى لم تمسك يدى مثل هذه القطعة ؟ ·· لن ·· لن أصرف منها مليما واحدا ·· بل سأضعها فى البيت وديعة تجلب لنا الأرزاق ·· بارك الله فيك يا زوجتى ·· كل هذا بركة دعائك ·· ولكن ·· أين نضع هذه القطعة الثمينة ؟ ·· أين ؟؟ ·· لا شك أن زوجتى ستحفظها فى مكان أمين فتكون عونا فى وقت الشدة ·

وصل الى كوم « الزبالة » نقل بصره بين الكوم الصغير والكبير ·· **ثم استقر على الكوم الكبير ولسان حاله يقول :**

ـ انه الأصغر ·· لكنه أكبر قيمة منك ·· لا تتباهى بضخامتك ·· فانت أجوف كالطبلة ·· أما هذا الصغير الحبيب ففى أحشائه كنزى الثمين ·

عاد يتلفت من حوله ·· انحنى على الكوم ·· تذكر حين يضم ابنه الصغير ويقبل خديه ·· دس يده ·· أخرج كنزه ·· بسرعة فتح الرقعة ·· وبسرعة وضع القمر وسط النجوم ··· نظر الى القروش كأنما يوصيهم به ·· وبسرعة أيضا أعاد الصرة الى أعماق الصغير ·· هلل وجهه ·· خاف أن يلمح فرحته أحد فيكتشف أمره ويسرق كنزه ·· فتمثل العبوس كما كان ··· وكما عهده الجميع ·

من جديد ·· عاد يضرب الأرض بقدميه المفلطحتين ··· أكثر حيوية من ذى قبل ·· :

ـ لم يبق غير بيتين ·· بعدها سأعود عدوا ·

جد فى سيره ·· صعد حتى الدور العلوى ·· السابع ·· قعد يستريح قليلا ·· لكنه قام كالملسوع يفرغ « زبالة » الناس فى صفيحته ··· وهناك أمام كوم « الزبالة » فى الشارع الكبير ·· وقف أحدهم يبتسم ··· فالكوم كبير على غير العادة ··· لا ريب أنه يذخر بما يبغى ·· وانبرى يبحث ويفتش ·· ويجمع الخرق والعظام ·· كم أراحه هذا الكوم من عنـــاء بحث طويل وسير كثير ·· جذب قطعة عظم ·· نظر فيها مليا ·· بها قطعة لحم ·· بقايا دجاجة ! ـ اتسعت ابتسامته ·· اشتم رائحتهـــا ·· تلفت حوله ·· ليس الا طفل يرقبه ·· لم يأبه به ·· نظف قطعة اللحم باحدى الخرق ·· وانبرى يقضم منها بشهية ·· أبعدها قليلا ليبحث فى ذاكرته عن آخر مرة ذاق فيها طعم الدجاج ·· لم تسعفه ذاكرته ·· قذف بقطعة العظم النظيفة من اللحم فى عربته الصغيرة المجاورة ·· لعق شفتيه ·· وطفق يفتش مرة أخرى لعله يعثر على قطعة أخرى تسكن آلام معدته بطعام نادر ·

جمع كل ما بالكوم من خرق وعظم ·· رفع ظهره متأوهـــا ·· نظر حول الكوم ·· لمح الكوم الصـــغير فحصه بعينيه ·· طوح رأسه غير مبال ·· خطا ناحية عربته ·· أمسك ذراعيهـا ·· دفعها أمامه قليلا ·· الا أنه توقف ثانيـة ·· عاد ناحيـــة الكوم الصغير ·· جعل يدفع محتوياته بقدمه ·· نفش الكوم فبـــانت الصرة ·· انحنى ليلتقطها ·· يفتح طياتها بينما كان حاله يقول :

ـ ولعلها تحوى قطعة من الحلوى فتستكمل الوجبـة ·· أو قطعة سكر فأهدى معدتى كوبا من الشـاى ·· فوجىء بالقروش تتلألأ ·· ترن فى أذنيه بنغمة عذبة ·· أغلق عينيه ثم فتحهمـــا

.. تراقصت جفونه .. أدناها لعينيه .. التقط القمر ليستمتع برؤيته .. اشتم رائحته .. انها لتشبه رائحة الدجاج المشوى .. أعاده الى مكانه .. لف الرقعة جيدا .. دسها فى جيبه فسكنت نفسه عن الصراخ .. وعاد يدفع عربته فى خفة وانطلاق .. وصل الى نهاية الشارع حينما كان « الزبال » خارجا من ذلك المنزل الذى انهكته ادواره .. يمعن فى سره تلك المرأة الثرثارة التى حكت له كلاما لم يع منه حرفا واحدا ..

مشى يترنح ناحية الكوم .. دنا منه فدق قلبه .. نظر فى جيبه .. لم ترن القروش القليلة . تحقق فى الكوم وقد تبعثرت أشلاؤه بيد مجنونة .. أسرع الى ولده الصغير .. الصريع .. وجهه مدفون فى الرغام وأنينه يملأ الآفاق .. لم يجد صرنه .

عبثا جعل يبحث .. يدقق .. يتحقق .. ثم يعيد البحث .. شعر بسحابة قاتمة تفترش وتتسع أمام عينيه حتى شملت الكون .. ثلجت أطرافه وارتخت عضلاته .. ثم هوى على مقعدته محطم النفس .. وقد برزت فى وجهه أقوى معانى اليأس .. وجدت الدموع سبيلا الى عينيه .. اللون الأصفر يغطى كل شىء .. أطلت فى مخيلته وجوه أولاده .. وزوجته .. كيف يعود اليهم خاوى الجيب .. كسير النفس والخاطر ..

ـ من سرق الكنز ؟ لو سحقنى ما بكيت .. وما تألمت .. انه يسحق أولادى .

ماذا يصنع ؟ .. وكيف .. وفيم يفكر ؟ .. جعل ينظر الى الشارع فى لوعة .. تنبه لوجود صبى وقف يتأمله فى عجب .. قرأ بؤسه على وجه الصبى .. تحامل على نفسه .. استطاع أن يقف .. الى أين يقصد .. أيعود الى بيته ؟ .. تذكر شيئا

.. جر رجليه .. قبع بين الصفيحة وكوم « الزبالة » القتيل .. الصفيحة تئن .. لو تعلم الزوجة لأنت .. ولأذرفت عيناها دماء .

انبرى يجمع علب السجائر الفارغة كما أوصاه ولده الصغير .. جمع كثيرا .. كثيرا .. تمنى أن يستمر حتى الموت .. وقع بصره على ورقة مطوية .. تناولها فى تراخ .. فتحها فى ملل .. وقع طرفه على ورقة نقدية حمراء .

ـ يا الهى ! .. كم .. كم قيمة هذه الورقة ؟! ـ لعلها خمسة .. أو .. أو عشرة جنيهات .

أمسكها باهمال .. قلبها على وجهها .. لو كان قد ذهب الى المدرسة وتعلم القراءة .. نسى الكنز الذى كافح من أجله طيلة يومه .. طوى الورقة كما كانت عليه .. ومن هنا بدأت متاعبه .. وقف ينظر الى لا شىء وقد لمع جبينه بعرق بارد ...

يقدح ذهنه :

ـ لم تكون هذه الورقة ؟ .. من صاحبها ؟ .. من .. من ؟

لا جواب .. فمنازل الشارع كثيرة .. وشقق المنازل عديدة .. هى لمن يا ترى ؟؟ .. أولاده جوعى .. وزوجته .. وهو .. بطنه خالية .. خاوية .. ظل يتخيل ويفكر .. برقت عيناه .. هز رأسه جعل يجر ساقيه جرا .. لو زحف على بطنه لكان أسرع .. فكره ما زال يعمل .. أرسلت عيناه نظرة شيطانية شامتة .. واصل سيره نحو بيته .. وقف فجأة .. عاد تجاه الكوم .. وقف ثانية .. أخذ ينظر فى وجوه المارة ..

ثم عاد يهرول قاصدا بيته :

– ان هذه الورقة لتكفينا شهورا .. اصطدم بأحد المارة .

– ماذا أقول لزوجتى .. ماذا أقول لها ؟؟

توقف .. زحف اليأس الى قلبه .. وتسرب الى صفحة وجهه .

– لعلها عطية الله عوضا عما فقدت .. و .. وأنى تمطر السماء أوراقا حمراء ؟! .. وكيف أعود الى عملى ؟

ولو سألنى أحدهم عن الورقة فماذا أقول ؟

تذكر أولاده فسالت العبرات الحبيسة على خديه .. ارتعشت شفته السفلى .

– أو يكون صاحبها أشد احتياجا منى .

كاد أن يضحك .. واستطرد فى يأس شديد .

– لعل هناك من هو أشد تعاسة منى .. والكثيرون يبدون عكس حقيقتهم .. ومن ذا الذى يعلم بالسرائر .. البيوت أسرار

حث خطاه قاصدا الشارع .. طرق باب أول شقة فى أول منزل .. تخيل بأنه أمام مسكنه .. وأن زوجته ستفتح له .. فتح الباب .. كاد أن يسأل المرأة عن أولاده .. هل غشى النوم جفونهم .. أم أنهم ينتظرون الطعام .. يتنبه على استفسار المرأة عن سبب عودته .. فأسرع قائلا :

– هل .. هل ضاع منكم نقودا ؟

غابت المرأة بالداخل لحظات ثم عادت تهز رأسها نافية .. بينما ترمقه بنظرة اعجاب .. خرج الرجل ليطرق أبواب الشقق فى كل منازل الشارع الكبير .. لم يعثر على صاحب الورقة ..

اشتد تعبه ·· جلس على الطوار يتأمل الورقة ·· وكانت الشمس تنحدر ناحيـة الغروب ·· أشار الى أحـد الصبية ·· فذهب اليه ·· أراه الورقة بحرص متسائلا عن قيمتهـا ·· أجاب الولد بدهشة وتفاخر : ـ انها عشرة جنيهات ·

ـ عشرة جنيهات !! ·· يا لها من ثروة ! ·· لو لم أجد صاحبها فتكون ليلة سوداء ·· لن ·· لن أتزحزح قدما عن هذا الشارع حتى أعثر على صاحب الورقة ·· لقد تأخرت ·· ولكن ما فائدة عودتى ·· ما فائدتى ؟ من غير مال أدفع به غائلة الجوع عن أولادى ·· وزوجتى ·

وبينما هو غارق فى حديثه المؤلم الى نفسه ·· جاءه نفس الصبى يلهث ويستحثه لمصاحبته الى منزلهم ·· كطلب والده ·

قام الرجل يهرول خلف الولد ·· بينما كان الأخير لايكف عن حثه على الاسراع ·· وقف الرجل حيث وقف الصبى بجانب والديه أمام باب الشقة ·· فقال الأب فى اندفاع ولهفة :

ـ انى صاحب الورقة الحمراء ·

لمعت عينا « الزبال » بالفرحة من بين خطوط البؤس التى غشيت وجهه والتفت حول عنقه ·· عندما أضاف الأب :

ـ انها عشرة جنيهات ··

التفت « الزبال » الى الصبى مرتابا ·· حين استطرد الأب يصف الورقة ومـــا كانت عليه ·· عندئذ قدم له الورقة ·· فاختطفها الأب شـــاكرا أمانته ·· ولم ينتظر « الزبال » ·· ·· واستدار منكس الرأس ·

ـ أعطانى الرجل الكثير ·· الشكر لقاء أمانتى ·· ان هذا ليكفينى ويزيد ·· لكن لا يعتق معداتنا من جوع على جوع ··· و ··· وما ذنب الرجل ؟

مشى مهلهل النفس بينما جاء الى سمعه صوت ارتطام باب الشقة ·· جعل يتخيلهم يأكلون فى هناء ·· تذكر ابنه الصغير فنظر الى صفيحته ·· فاصطدمت بعينيه علب السجائر الفارغة ·· واصل خطواته الزاحفة ·· المترددة ·· وكان الليل قد صبغ الدنيا بأديمه ·· طرق « الزبال » باب مسكنه ·· فتحت الزوجة بشوق ولهفة ·· لمح فى وجهها دلائل الخوف عندما قالت بصوت واهن :

ـ لقد تأخرت اليوم ··

استدارت دون أن تسمع جوابه ·· ذهبت حيث ينام أولادها لتوقظهم ·· استوقفتها كلماته التى تقطر يأسا وكمدا :

ـ لا توقظى أحدا ··

كانت الكلمات كالسهام مزقت قلب الأم ·· اندفعت نحوه ·· تفرست فى وجهه مستغربة ·· رات دموعه ·· لم تنظر الى الصفيحة فقد اعتادت عليها ·· كأنما لا تصرفه بدونها ·· انتابتهما فترة صمت قطعها صوت الصغير : ـ ألم تأت بالطعام يا أبى ·· اننى جوعان ·

تدفقت الدموع من عينى الأب ·· وقال فى ألم شديد :

ـ لقد أحضرت لك أوراقا كثيرة ·

رفع الصغير صوته معاتبا :

ـ أقول لك اننى جوعان ·· لا أريد الأوراق ·· بل أريد الطعام ·

لم يجب الأب ·· فماذا يقول ؟ ·· كانت دموعه أفصح من كل لسان ·· وأروع تعبير ·

على طول الدرب ·· فى الأزقة والحارات ·· فى قلب مجتمعنا نفوس تتعذب ·· وقلوب تتمزق ·· وعيون لا تهدأ من الدموع ·